۱۶۶۲۰

مجله	رابطة العالم الاسلامی
تاریخ نشر	ربیع الثانی ۱۳۸۵
شماره	دوم سال سوم
شماره مسلسل	
محل نشر	مکه مکرمه
زبان	عربی
نویسنده	محمود بن الشریف
تعداد صفحات	۳۱ ـ ۳۵
موضوع	الامثال فی القرآن
سرفصلها	
کیفیت	
ملاحظات	

الأمثال فى القرآن

١٦٦٢٠
٣/٢
٨٥

للأستاذ محمود بن الشريف

من سنن الهدى الاسلامى مراعـــاة النفسيات ، فهناك نفس متينة مكينه ، ونفس هشة قميئة وثالثة كافرة فاجرة وأخـــرى مارقة ماجنة .. ألوان من نفسيات متباينة متغايرة لكل منها عند القرآن علاج خاص.

فالنفوس الخيرة المؤمنة ، التي تزيدها الدعوة استمساكا بعقيدتها وايمانا على ايمانها ، وتقريرا لمفاهيم العقيدة وتثبيتا لمبادئها وتوكيدا لتعاليمها .. هذه النفوس يربيها القرآن تربية خاصة ، تربية مثالية قوية تتواءم مع قوتها . وتتلاءم مع ايجابيتها ، والنفوس الهشة الضحله الايمان الضعيفة البنيان يحصنها القرآن بما يقدم لها من بالغ كلمه وبارع حكمه ورائع مثله وجميل ارشاده وجليل توجيهه ، وتظل تتقبل وتزدرد حتى تنفعل وتتشبع .. وحتى يستقيم عودها ويتكامل بنيانها .

مزاج من نصح وامشاج من هداية ومقادير من ادوية تقدم لكل نفس بمعيار وقدر ، فما يصلح لاحداها لا تنتفع به اخرى وما ترغب فيه نفس ترغب عنه اخرى ، وما يقنع نفسا مطمئنة تعافه نفس جامحة شموس .

ومن أجل هذا كانت الامثال فى القرآن لونا من ألوان الهداية الاسلامية الالهية تغرى النفوس على الخير او تحضها على البر أو تمنعها من الاثم او تدفعها الى فضيلة او تدفع عنها شائبة أو تمنع نقيصة . ومن أجل هذا تناولت الامثال القرآنية مجالات عدة ، فمثلت الايمان ومثلت بالكفر وفضحت النفاق وحضت على الانفاق ونادت بالخير ونددت بالشر وصورت الطيب والخبيث والصالح والطالح وغير ذلك مما اشادت به او أشارت اليه . ثم نجد الامثال قد ابرزت المعقول فى صورة مجسمة ، وألبست المعنوى ثوب المحسوس ، وفصلت المجمل واوضحت المبهم ، لتهذب بذلك الطبائع

وتقلم الغرائز الشريرة وتخفف من غلواء النفوس وتحد من ضراوتها وتطامن من كبريائها وغرورها . وفي ذلك يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتابه « اسرار البلاغة » : « .. واعلم ان مما اتفق العقلاء عليه ان التمثيل اذا جاء في اعقاب المعاني او برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الاصلية الى صورته كساها ابهة وكسبها منقبة ، ورفع من اقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب اليها واستثار لها من أقاصي الافئدة صبابة وكلفا وقسر الطباع على ان تعطيها محبة وشغفا ، فان كانت مدحا كان ابهى وافخم ، وانبل في النفوس واعظم ، واهز للعطف واسرع للالف ، واجلب للفرح ، وأغلب على المنتدح واوجب شفاعة للمادح واقضى له بغرر المواهب والمنائح وأسير على الالسن واذكر واولى بان تعلقه القلوب واجدر ، وان كان ذما كان مسه اوجع وميسمه الذع ووقعه اشد ، وحده أحد . وان كان احتجاجا كان برهانه أنور وسلطانه اقهر ، وبيانه ابهر .. وان كان افتخارا كان شأوه أبعد ، وشرقه أجد ولسانه ألد ، وان كان اعتذارا كان الى القبول أقرب وللقلوب أخلب وللسخائم أسل ولعزب الغضب أفل وفي عقد العقود أنفث وعلى حسن الرجوع أبعث . وان كان وعظا كان أشفى للصدر وادعى الى الفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر واجدر بان يجلى الغباية ويبصر الغاية ويبرىء العليل ويشفي الغليل » . ويقول العلامة ابو السعود في تفسيره : « .. والتمثيل ألطف ذريعة الى تسخير الوهم للعقل واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه ، وأقوى وسيلة الى تفهيم الجاهل الغبي وقمع سورة الجامح الابي ، كيف لا ؟ وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية ، وابراز لها في معرض المحسوسات الجلية ، وابداء للمنكر في صورة المعروف ، واظهار للوحشي في هيئة المألوف » . وقال ابن المقفع : اذا جعل الكلام مثلا كان اوضح للمنطق ، وآنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث . وقال ابراهيم النظام : « يجتمع في المثل اربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : ايجاز اللفظ واصابة المعنى ، وحسن التشبيه وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة » .

وقد راع المعاندين والمكذبين هذا النمط من الاسلوب القرآني وذلك اللون من التربية الالهية ، واستنكروا ان يضرب الله الامثال زاعمين ان الله أعلى من ذلك وأجل .. ثم تعالوا في استنكارهم وتساءلوا متعجبين : أي قدر للذباب والعنكبوت حتى يضرب الله بها الامثال ؟ وجادلوا محتجين بان الله عظيم ولن يتضمن كلامه الا كل عظيم ، ويرد عليهم القرآن بان المولى

سبحانه لا يرى من النقص أن يضرب مثلا بالبعوضة أو بأصغر منها حجما ، فالمثل حق يدعو الى حق يعترف به المؤمنون فيزيدهم تمسكا بايمانهم ، وينكره المارقون الجاحدون فيزيدهم غواية على غوايتهم «ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فاما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين .. » . وها هوذا أول مثل قرآني من سورة البقرة عن « المنافقين » وترى القرآن يتغلغل الى أعماق المنافقين فيكشف عن منازعهم ونوازعهم ، ويبين خوالجهم ونبضاتهم ويميط اللثام عن أدق حالاتهم وأحوالهم ، ويدون سلوكهم ومشاربهم عندما يضرب لذلك أروع التشبيهات وأبلغ الصور . فها هوذا - في أول سورة من سوره الطوال سورة البقرة - يحلل اتجاهاتهم ويرسم لهم باسلوبه المشرق الاخاذ صورة تنبض بما يجيش في أعماقهم وتومىء الى ما حاولوا الحفاظ عليه وتفضح ما خفي من نقائصهم : (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون) . هذا لون من المنافقين أتاهم الله دينا فيه هداية ، وشريعة فيها صلاح وفلاح فآمنوا ايمانا ظاهريا ، وعطلوا عقولهم والغوا تفكيرهم ولم ينتفعوا بما جاءهم ، ولم يقتفوا نهج من سلفهم ، وكانوا أمة وحدهم ، فابتكروا لانفسهم منازع واتجاهات انحرفت بهم عن السنن الظاهر والمحجة الواضحة ولم يكتشفوا انفسهم والهدى القائم بينهم والخير السائد فيهم والنور الغامر لمن حولهم من المؤمنين الصالحين .. فعموا عن كل ذلك وصموا وضربوا صفحا عن هدى الله وجعلوا بينهم وبين النور حجابا منيعا وسدا صلبا فعاشوا بمعزل عن الحق ، وبمنأى عن الضياء ، يهيمون في ديجور من الظلام وفي متاهة من الباطل ، ولم ينعموا بما نعم به مخلصو المؤمنين من خير ونور وهدى مثل هؤلاء الصم البكم العمى في نفاقهم كمثل الذي اوقد نارا لينتفع بها في ليله الحالك فلما اضاءت النار ما حوله فرأى الضياء والسناء سرعان ما أطفأها مطر شديد ذو ريح عاصف أخمد اوارها وبدد لهيبها فتحير .. وتخبط في الظلمات لا يدري ما يتجنبه ولا ما يتقيه !!

(او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون اصابعهم في آذانهم من

الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شيء قدير) وهذا صنف آخر من المنافقين كان فيهم بقية من رجاء ورمق من حياة .. أصاخوا بحواسهم ومشاعرهم الى صوت الايمان الحق فاستجابوا له وآمنوا به ثم ساروا فى طريق الله يقتبسون احيانا من نور التعاليم الالهية وتضيء سبيلهم معالم الشريعة ونور الحقيقة .. ويسيرون خطوات ثم تتهاوى أقدامهم وتتعثر خطاهم وتعشى بصائرهم وتزيغ أبصارهم وينتكسون عندما يحكمون عقولهم وتطغى عليهم تقاليد موروثة وتعتلج فى نفوسهم رواسب عفنة فتهيج وتحيد بهم عن الجادة وتنحرف بهم عن الصراط المستقيم ، يمثل القرآن حالة هذا الصنف الذى آمن ثم نكص والذى انتفع آونة باسلامه ثم آض الى ما كان عليه بحال قوم كانوا يسيرون فى مهمه متسع وفى فلاة فسيحة يلفهم فيها طلام الليل الحالك فوقفوا حيث هم يتلمسون النجاة ولا سبيل اليها ..!! ثم نزل بهم مطر غزير فيه رعد وبرق وصواعق .. وقصف الرعد .. ولمع البرق ودوت الصواعق .. وبين دفقات الخوف ودفعات الرجاء يمشون خطوات فى ضوء البرق الخاطف .. ثم يذهب البرق ويذهب معه الضوء ويطبق عليهم الظلام وتحيط بهم العتمة فيقفون في مكانهم ويقيمون على حيرتهم ومخاوفهم مجترين أوهامهم وضلالاتهم . وأظهر هذان المثلان للمؤمنين ان المنافقين في كل عصر وآن متفاوتون ليسوا على شاكلة واحدة فى الزيف والمروق والخروج على المحجة والتعاليم ، منهم من استقى من نبع الايمان الصافي ثم ارتد الى الوحل يعب من الماء الراكد الآسن .. ومنهم من ظل هيمان صاديا يسدر فى غوايته ويهيم فى ضلاله بعد أن ازور عن المنهل العذب وهو منه جد قريب ، والى هذا يشير الاستاذ الامام محمد عبده فى تفسيره فيقول : « .. ضرب الله تعالى لهذا الصنف فى مجموعه (يقصد المنافقين فى كل عصر وزمان) مثلين ، ينبئان بانقسامه الى فريقين ، خلافا لما عليه اكثر التفاسير فى أن المثلين لفريق واحد وان معناهما وموضوعهما واحد (الاول) من أتاهم الله دينا وهداية عمل بها سلفهم فجنوا ثمرها وصلح حالهم بها ، أيام كانوا مستقيمين على الطريقة آخذين بارشاد الوحي واقفين عند حدود الشريعة ولكنهم انحرفوا عن سنن سلفهم فى الاخذ بها ظاهرا وباطنا ولم ينظروا فى حقائق ما جاءهم بل ظنوا أن ما كان عند سلفهم من نعمة وسعادة انما كان امرا خصوا به او خيرا سبق اليهم لظاهر قول او عمل امتازوا به عن غيرهم ممن لم يأخذ بدينهم،

وان كان ذلك العمل لم يخالط سرائرهم ولم تصلح به ضمائرهم فأخذوا بتقاليد وعادات لم تدع فى نفوسهم مجالا لغيرها ولذلك لم يتفكروا قط فى كونهم أحرى بالتمتع بتلك السعادة والسيادة من سلفهم اذ ان حفظ الموجود أيسر من ايجاد المفقود، بل لم يبيحوا لانفسهم فهم الكتاب الذى اقتدى من قبلهم بما فيه من شموس العرفان ونجوم الفرقان ، لزعمهم أن فهمه لا يرتقى اليه الا أفراد من رؤساء الدين يؤخذ بأقوالهم ما وجدوا ، ويكتبهم اذا فقدوا ، فمثل هذا الفريق من الصنف المخذول فى فقده لما كان عنده من نور الهداية الدينية وحرمانه من الاهتداء بها بالمرة وانطماس الآثار دونها عنده مثل من استوقد نارا .. والوجه فى التمثيل : أن من يدعى الايمان بكتاب نزل من عند ربه قد طلب بذلك الايمان ان توقد له نار يهتدى بها فى الشبهات ويستضيء بها فى ظلمات الريب والمشكلات ويبصر على ضوئها ما قد يهجم عليه من مفترسة الاهواء والشهوات ، فلما اضاءت ما حوله بما اودعته من الهدى والرشاد وكاد بالنظر فيها يمشى على هداية وسداد هجمت عليه من نفسه ظلمة التقليد الخبيث وعصب عينيه شيطان الغرور فذهب عنه ذلك النور وأطبق عليه جو الضلالة بل طفيء فيه نور الفطرة وتعطلت قوى الشعور بما بين يديه فهم بمنزلة الاعمى الاصم الذى لا يبصر ولا يسمع . اما (الفريق الثانى) ، فقد ضرب الله له المثل فى قوله : أو كصيب من السماء .. وهو الذى بقى له بصيص من النور فله نظرات ترمى الى ما بين يديه من الهداية احيانا ولمعانى التنزيل لمعان يسطع على نفسه الفينة بعد الفينة ويأتلق فى نظره الحين بعد الحين عندما تحركه الفطرة او تدفعه الحوادث للنظر فيما بين يديه ولكنه من التقاليد والبدع فى ظلمات حوالك ومن الخبط فيها على حال لا تخلو من المهالك وهو فى تخبطه يسمع قوارع الانذار الالهى ويبرق فى عينيه نور الهداية فاذا اضاء له ذلك البرق السماوى سار .. واذا انصرف عنه يشبه الضلالات الغرارة قام وتحير .. لا يدرى أين يذهب ..!! ثم انه ليعرض عن سماع نذر الكتاب ودعاة الحق كمن يضع اصبعيه فى اذنيه حتى لا يسمع ارشاد المرشد ولا نصح الناصح يخاف من تلك القوارع أن تقتله ومن صواعق النذر ان تهلكه . هذا هو شأن فريقى هذا الصنف بما يشير اليه المثلان اجمالا . »